العرب
الأربعاء 2021/06/02
السنة 44 العدد 12077

رحيل المفكر التونسي هشام جعيط المؤرخ الجريء للإسلام

مفكر نقد هوس المسلمين العرب بالدين وقدم قراءة جديدة للتاريخ الإسلامي

لم تعرف تونس في تاريخها الحديث مؤرخا ومفكرا أكثر جرأة من هشام جعيّط، الذي كرس أغلب كتبه لترسيخ فكر ديني جديد، إضافة إلى تقديمه لقراءة تاريخية عميقة للإسلام، قراءة كشفت الكثير من الحقائق المثيرة للجدل.

باحث متمرد على الفهم التقليدي للتاريخ الإسلامي

تونس – توفي الثلاثاء غرة يونيو 2021 المفكر والمؤرخ التونسي هشام جعيط عن عمر ناهز الـ86 عاما بعد صراع مع المرض.

وولد جعيط لعائلة من المثقفين والقضاة وكبار المسؤولين من البرجوازية الكبيرة في تونس العاصمة، وهو حفيد الوزير الأكبر يوسف جعيط وابن أخ العالم والشيخ محمد عبدالعزيز جعيط.

> **مؤلفات هشام جعيط التي عرّت خفايا التاريخ الإسلامي ومواقفه المثيرة للجدل، منحته مكانة هامة كأهم المؤرخين العرب**

ورغم انتمائه إلى وسط عائلي محافظ، مكتسب لثقافة دينية عتيدة، ومتأصّلة في الثقافة العربية الإسلامية، وخلافا لما جرى عليه الأمر بالنسبة إلى أبناء العائلة الكبيرة الذين كانوا يوجّهون إلى التعليم الديني، انتسب الطفل هشام إلى المدرسة الصادقية ليتعلم اللغة الفرنسية مبكرا، وهذا ما ساعده في ما بعد على اكتساب معرفة عميقة بالثقافة الفرنسية في مختلف عهودها.

وفي مطلع شبابه، وبسبب ولعه بالثورة الفرنسية وبفلاسفة الأنوار، شرع الراحل يبتعد شيئا فشيئا عن الوسط المحافظ الذي ينتمي إليه. وقد أحدث اكتشاف الفلسفة منعرجا في حياة الشاب جعيط الذي كان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره.

وعن ذلك يقول "كان اكتشافي للفلسفة أمرا حاسما، وكان بمثابة الفتح والتجلي، ولست أعني بذلك الميتافيزيقا فقط، وإنما أيضا علم النفس والأخلاق والمنطق. عندئذ بدأت تذوب عندي بديهيات أساسية، وفي الآن نفسه اكتشفت علم البيولوجيا، ونظرية التطور، وهذا كلّه أثار إعجابي واندهاشي في نفس الوقت".

وعندما سافر إلى فرنسا لمواصلة تعليمه العالي في دار المعلمين العليا، أين تحصل على شهادة التبريز في التاريخ سنة 1962، لم يهتم جعيط بالسياسة بل بالفكر.

وحصل جعيط على دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة السوربون بباريس سنة 1981. والراحل هو أستاذ فخري لدى جامعة تونس، درّس كأستاذ زائر بعدة جامعات عربيّة، أوروبية وأميركية منها جامعة ماك غيل (مونتريال) وجامعة كاليفورنيا، بركلي وبمعهد فرنسا. وكان قد تولى رئاسة المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة" بين سنتي 2012 و2015، وهو عضو في الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون.

ولا يخفي جعيط أنه تأثر كثيرا عام 1968، أي بعد هزيمة العرب المدوية في حرب الأيام الستة، بكتاب ميشيل عفلق "في سبيل البعث"، ووجده "جريئا وقوميا وحداثيا في آن واحد". كما أعجب بكتاب المفكر المغربي عبدالله العروي "الأيديولوجيا العربية"، وأيضا كتاب الشاعر والمفكر الباكستاني محمد إقبال "تجديد الفكر الديني في الإسلام".

ولعل كل هذه القراءات هي التي دفعته إلى تأليف كتابه "أوروبا والإسلام" الذي سعى من خلاله إلى تحليل ماهية الإسلام وماهية الغرب، وتقديم نظرة حول فلسفة الثقافة. كما أثار فيه مسائل أخرى كانت تشغل ذهنه منذ فترة الشباب. وعن كتابه المذكور، يقول جعيط "باستثناء علي حرب، لم يهتم العرب كثيرا بكتابي 'أوروبا والإسلام'. أما الغربيون فقد أعجبهم الكتاب. لذا ترجم إلى الإنجليزية والإسبانية. وتحدث عنه الباحثون ككتاب مهمّ على مستوى استقراء العلاقة الثقافية والحضارية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي".

شهرة جعيط لم تكن من عمله الأكاديمي بقدر ما مثلت في مؤلفاته ومواقفه المثيرة للجدل، فبعد أن أصدر كتابا ضخما عن تاريخ الكوفة، اهتم المفكر الراحل بالسيرة النبوية مقدما من خلالها قراءة فلسفية وعلمية مدهشة للإسلام، نذكر من بينها مؤلفاته الأشهر "الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر"، "جدل الهوية والتاريخ"، "في السيرة النبوية جزء 1: الوحي والقرآن والنبوة"، "في السيرة النبوية جزء 2: تاريخية الدعوة المحمدية"، "في السيرة النبوية جزء 3: مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام".

وفي حوار سابق مع "العرب" أكد جعيط أن أزمة المسلمين العرب عمّقها هوسهم بالدين، مشدّدا على أن هذا الدين يلعب دورا مجحفا في حياة هؤلاء.

ورأى جعيط أن "التاريخ الإسلامي منفتح على مجهودات المؤرخين، والمجال واسع لمزيد من العمل اليوم". وسلّط المؤرخ الراحل الضوء على كيفية تناول المفكرين العرب لهذا الاختصاص، لافتا إلى أن أغلبهم اتخذ طابعا فلسفيا، في ما لم تقع دراسة التاريخ بمعناه الحقيقي.

ودعا مرارا إلى ضرورة التمييز بين الفكر التّاريخي وعلم التّاريخ وفلسفة التّاريخ، قائلا "إنّ الفكر التّاريخي ينفتح على الاهتمام بقضايا بعينها اجتماعيّا وثقافيّا، من وجهة التّناسق بين الوعي الفردي والحقيقة الموضوعية، مع عدم الالتزام ضرورة بصرامة المنهج التاريخي، وهذا اختلاف جوهريّ مع علم التاريخ الذي يفترض الدقة العلمية والمنهجية في عرض الأحداث وقراءتها. أمّا فلسفة التّاريخ فهي دراسة الأسس النظرية للممارسات والتطبيقات والتغيرات الاجتماعية التي حدثت على مدى التاريخ، وهي تهتم بمعنى التاريخ وقوانينه واتجاهاته".

ولم تتوقف آراء جعيط الجريئة والمثيرة للجدل حيث كان يرى في حديثه عن الواقع الراهن للبلدان العربية "الآن وبسبب التأخر الاقتصادي والاجتماعي، فالديمقراطية بالمعنى الغربي الدقيق لا تتماشى مع نفسية المسلمين الحالية".

وأضاف "أعود وأكرر، ليست المشكلة في المؤسسات ولا في ممثليها، المشكلة تكمن في أن المسلمين لديهم هوس كبير بالدين وبالمحافظة عليه.. الدين يلعب دورا مجحفا في حياة المسلمين".

وشدّد جعيط على أن "المشكلة مشكلة حضارة.. الحضارة الغربية مثلا كانت متأثرة بالدين لكن المراجعات جاءت في سياق النهضة الفكرية التي أفرزها عصر التنوير.. منذ ثلاثة قرون حسم الغربيون أمرهم في هذا الصدد، وهو ما لم يقم به المسلمون والعرب".

الشعر مهم لكن الأطفال يفضلون الحكايات

لا غنى عن الأدب في حياة الأطفال، فهو الوسيلة الأولى لنحت الخيال وفتح مدارك الصغار وترسيخ التفكير والخيال لديهم وتنشئتهم علميا وذوقيا وأخلاقيا. إلا أن الكثير من الأدباء الذين يكتبون للأطفال يسقطون في الوعظ ولا يراعون تطور ذائقة الطفل، وخاصة الشعراء الذين لا يزالون يكررون الأناشيد القديمة بمعزل عن التحول الكبير في حياة الطفولة ورؤاها.

مراكش (المغرب) – أجمع المشاركون في المنتدى الحواري "شعر الأطفال في المغرب: نصوص وشهادات"، والذي نظمته دار الشعر بمراكش الجمعة 28 ماي الماضي ضمن سلسلة ندواتها المخصصة للموسم الرابع، على ضرورة الاهتمام بالكتابات الموجهة للطفل في النسيج الثقافي والفني المغربي.

ورغم حداثة وجدة التجربة الشعرية الموجهة للطفل، فإن خصوصية النص الشعري تفترض وعيا حادا بهذه الفئة العمرية وحاجياتها النفسية والمعرفية، وخصوصية النص البنائية والمعرفية وحواريته مع أجناس تعبيرية من مجالات متعددة. كما توقف المشاركون عند سمات التجربة المغربية، من خلال نماذج الرواد والتجارب الحديثة، والتي أفرزت منجزا متواضعا يحتاج للمزيد من الاجتهاد والتخصيص.

الكتابة الصعبة

اللقاء الحواري "شعر الأطفال في المغرب: نصوص وشهادات"، والذي شهد مشاركة الشاعر مصطفى ملح، والمتوج بجائزة المغرب للكتاب، صنف الشعر (2019 – مناصفة)، والشاعر الطاهر لكنيزي، المتوج بجائزة المصطفى عزوز العربية لأدب الطفل، والمؤطرة والكاتبة كريمة دلياس، والتي راكمت تجربة مهمة في عوالم الكتابة والتأطير في هذا المجال، شهد تقديم شهادات حول علاقة الكتابة الشعرية بالطفل، وقراءة نصوص شعرية للأطفال، فيما خصص الجزء الثالث من هذا اللقاء لحوار مفتوح حول سمات "شعر الأطفال في المغرب" وخصوصية النص الشعري الموجه للطفل.

وقد أجمع المتدخلون على خصوصية هذه الندوة التي أعلنتها دار الشعر بمراكش، والتي تلامس الموضوعات والتيمات الجوهرية الآنية لقضايا الشعر المغربي اليوم.

وقد توجهت الكاتبة كريمة دلياس إلى تأكيد مركزية حضور الحكاية في حياة الطفل، ومنها برز دور ووظيفة الأدب الموجه إلى الطفل. وعبر تقصي لنماذج تطبيقية ومشاهدات وتجارب شخصية، خلصت الكاتبة إلى أن التجربة المغربية مازالت فتية في هذا المجال. وبالقدر الذي ترى أن الطفل ميال إلى النص الحكائي، والمعروض أمامه قرائيا، عبر وسائط "شخصيات حيوانية" أو عبر تفاعل الألوان، فإن النص الشعري يظل مهما غير أنه لا يمثل أولوية بالنسبة إلى الطفل، خصوصا لدى فئات عمرية تحديدا. ويضاف إلى هذا المعطى، توجه دور النشر، المتخصصة على قلتها، إلى التدخل في توجيه النص الخاص بالطفل.

الشاعر الطاهر لكنيزي، والذي شكل عالم التربية والتعليم بوابته الفعلية للانتقال إلى كتابة النص الشعري للأطفال، أعاد نسخ هذه العلاقة الإبداعية لكن بإصرار، على ضرورة "سلطة النص" وحضوره القوي في توجيه الطفل. ويثير لكنيزي هذه العلاقة المركبة والتي أمست الصورة والوسائط الأخرى تؤثر سلبا في نسج هذه العلاقة التربوية في علاقة الطفل بالنص الإبداعي الشعري، مصرا على ضرورة ربط الطفل به أولا وأخيرا. تجربة الشاعر، والتي استمدت مرجعيتها من حقل عمله التربوي، وأبرزت له جدواها كتجربة خاضها بعدما رسخ اسمه كشاعر حداثي. تبدو صعوبة التحديدات الاصطلاحية للطفل، في ارتباط بالمرجعيات والمعاجم، خصوصا عندما يتم الحديث عن علم اللغة وعلم التربية وعلم النفس وغيرها، وهنا تكمن أهمية الشعر في تجاوزها.

الشاعر مصطفى ملح، والذي راكم تجربة مهمة في إصدارات شعرية موجهة للطفل، فقد أثار علاقة الكتابة بالطفل لكن من خلال إرادة واعية في اختياره أن يتمثل طفولته. إذ مازالت خيالات وعوالم الطفولة حاضرة، وهو ما يؤشر على ضرورة الخروج من "تعالي الكاتب الكبير" والذي يوجه كلامه "للطفل".

تجربة ملح الشعرية للأطفال انطلقت منذ عشرين سنة خلت في تماس مع الأطفال في مؤسسات تربوية، وهو ما جعله يبحث عن التخلص، فيما وسمه، بـ"البلاغة التقليدية" من النص الشعري والـ"مساحيق الاستعارية"، سعيا إلى كتابة نص شعري يستجيب لذائقته الخاصة، ينطلق من اليومي ليشكل نقطة ضوء قريبة من وجدان الطفل.

الكتابة للطفل صعبة، يشير ملح، لأنها موجهة لفئات عمرية ذات ميولات مركبة وخيالات أكثر اتساعا، كتابة مطالبة بمراعاة تطلعات وطموحات الطفل.

وإثر هذا الحوار اختار كل من الشعراء والكتاب كريمة دلياس والطاهر لكنيزي ومصطفى ملح أن يقدموا نصوصهم الشعرية والإبداعية من منجزهم وإصداراتهم الموجهة للطفل.

خصائص متغيرة

في محطة ثانية تتوقف عند خصوصية النص الشعري الموجه للطفل، وأيضا محاولة تلمس سماته البنائية والتركيبية، في تعارض للرؤى، فقد شكل هذا الحيز معطى إيجابيا في هذا اللقاء الحواري، والذي شهد نقاشا رصينا كل يدافع بحمولاته المعرفية عن تصورات ذاتية، بمرجعياتها الثقافية ومن خلال التجربة الخاصة.

ويبدو لافتا أنه يصعب تحديد خاصيات متفق عليها، لمبادئ عامة محددة للنص، وطبيعيته، دون تحديد فئات عمرية وحاجياتها تبعا لعوامل أخرى تتحكم في هذا الاختيار.

وكانت التجربة المغربية في مجال أدب الطفل قد انطلقت مبكرا منذ مطلع القرن الماضي، إذ شكلت "صحيفة الأطفال"، وهي صفحة خصصتها صحيفة العلم المغربية للاهتمام بأدب الطفل ابتداء من عام 1947، الانطلاقة الفعلية، للاهتمام المشهد الإعلامي المغربي بالكتابات الموجهة للطفل.

كما شكلت مرحلة الأربعينات من القرن الماضي البدايات الفعلية لحضور أدب الطفل في المشهد الثقافي المغربي. وأسهم توالي ظهور جرائد أخرى تهتم بأدب الطفل، ومجلات متخصصة (كالمزمار والتلميذ والعندليب والسندباد الصغير ومجلة أزهار والمغامر، ومناهل الأطفال، التي كانت تسهر عليها الوزارة المكلفة بالشؤون الثقافية، واليوم عادت الوزارة لتصدر مجلة متخصصة للطفل بعنوان "اقرأ")، هذا إلى جانب ظهور أسماء رائدة، خصوصا في كتابة القصة الموجهة للأطفال، كالعربي بنجلون وأحمد عبدالسلام البقالي ومصطفى رسام وعبدالفتاح الأزرق ومحمد الصباغ ومحمد سعيد سوسان ومحمد إبراهيم بوعلو.. وغيرهم.

وتشكل المراحل الأولى لاستقلال المغرب، النواة التأسيسية والتأصيلية للاهتمام بأدب الطفل في المغرب. ليتحول إلى مراحل سعت إلى الانتقال من الظهور إلى التطور وعيا بخصوصية الطفل، انتهاء بالمرحلة الحديثة والتي أمست فيها دور نشر متخصصة، والمدهش فيها أنها تقودها كاتبات مغربيات، هن أنفسهن اخترن الكتابة للطفل، إلى جانب ظهور خطاب أكاديمي نقدي حول هذا الأدب.

ذائقة الأطفال وميولاتهم تغيرت عبر الأزمان

> **اللقاء الحواري يبين التغيرات التي مست ذائقة الأطفال ويدعو إلى مراجعة المسلمات المتعلقة بالنص الإبداعي الموجه لهم**

وبالعودة إلى خصائص الكتابة الشعرية الموجهة للطفل، توقف المشاركون في اللقاء الحواري عند "بنية النص الشكلية أو المورفولوجية، أي البناء الخارجي للنص، من حيث حجم النص الأدبي وكميته، والخاصيات والأهداف الموجهة: الهدف اللغوي، التعليمي، التربوي، الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، الفني والجمالي الملائم للمراحل العمرية للطفل". فيما يمكن إجمال هذه الخصائص في ضرورة تبسيط المستجدات المعرفية، والابتعاد عن التعقيد اللغوي والفني والبلاغي وإغراق الطفل بالأساطير الخرافية والاستطرادات، وضرورة مراعاة التعبير الفني المناسب لكل فئة عمرية.

وقد نوهت بعض المداخلات إلى ضرورة الانتباه لمعطى جديد يرتبط بالتغيرات والتحولات التي مست ذائقة الأطفال، وهو ما أفضى إلى مراجعة بعض المسلمات المتعلقة بالنص الإبداعي الموجه للطفل. وأيضا تغيرات لامست المفهوم نفسه لـ"أدب الطفل"؟